والهَمُّ يغتنم[1] الجَسيمَ نَحافَةً ويُشيبُ نَاصيةَ الصَّبىِّ ويُهرمُ

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه وتعالى عن أهل الإيمان المصطفين من عباده ، وعن جزائهم فى جنات عدن لتستبشر النفس ، وتتفتح إلى بشارات الأتقياء يذكر سبحانه ما يقابل ذلك من نذارات الأغبياء ، وذكْر المقابل يزيد المعنى وضوحاً ، وهو سمَة من سمات الأسلوب القرآنى ، كما فى قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [التوبة]

كذلك هنا يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾

اللام فى ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ (٣٦) ﴾ [فاطر] تفيد الملكية والاختصاص ، كما نقول : فلان له كذا وكذا ، فكأنهم يتعلَّقون بها ، وهى تتعلق بهم تعلُّق المالك بالمملوك ، وساعةَ يدخلونها والعياذ بالله يودُّون الخلاص منها ولو بالموت ، على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بكَ دَاءً أنْ تَرَى الموْتَ شَافياً وحَسْبُ المنَايَا أنْ يكُنَّ أَمانيا[2]

---

(١) الصواب : (والهم يخترم) كما فى ديوان المتنبى : وهو من قصيدة له من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وأشهر أبيات هذه القصيدة هو قوله :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

(٢) هذا البيت للمتنبى أيضاً وهو مطلع قصيدة له فى ديوانه ، وهى من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٤٧ بيتاً .

نعم : يتمنَّوْنَ الخلاص ولو بالموت ، لكن هيهات لهم ذلك ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿وَنَادَوْا يَـمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف] فالموت ليس عذاباً ، بل هو بالنسبة لهم راحة من عذاب أشدّ وأبْقى .

وأذكر أن بعض المستشارين ادعى أن كتاب الله ليس فيه دليل على رَجْم الزانية المحصنة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى فى الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)﴾ [النساء]

على اعتبار أن الرجم لا يتجزأ ليكون فيه نصف رجم ، وما دام الرجم لا يتجزأ فلا رجمَ إذن . فربنا سبحانه وتعالى ألهم وقلنا والحمد لله : علينا أن نحدد أولاً ما العذاب ؟ العذاب : إيلام حَيٍّ ، وإذا ما جمعنا آيات القرآن فى الموضوع بعضها إلى بعض ، وَضُحَتْ لنا الصورة وظهر المعنى ، فالله يقول فى قصة هدهد سليمان عليه السلام : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ (٢١)﴾[النمل] إذن : الموت أو الذبح أو القتل ليس عذاباً . والرجم إماتة ، والإماتة إنهاء للعذاب .

والحق سبحانه وتعالى حين قال هذا النص شاء الله سبحانه أن يجعل لنبيه ﷺ بياناً بهذا النص ، وفَرْق بين حكم تأخذه بالنص ، وحكم تأخذه بالتطبيق الفعلى من المشرِّع ﷺ ؛ لأن النص يمكن لك أنْ تؤوله ، أما التطبيق الفعلى من رسول الله فلا تأويلَ فيه ، وقد ثبت أن رسول الله رجم بالفعل .

ولو كان الأمر كما يدَّعى المستشار لكانت الآية : فعليهن نصف ما على المحصنات دون أنْ تذكر العذاب ، فقوله تعالى : ﴿مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)﴾[النساء] يعنى : لا من غيره ، فهو بيان للنصف ، نصف العذاب ، والرجم ليس عذاباً ، بل إنهاء للعذاب .

ثم يخبر سبحانه عن حال أهل النار ﴿وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا (٣٦)﴾ [فاطر] أى : أنه عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر ، فالإنسان مثلاً فى الدنيا قد يُبْتلى - والعياذ بالله - بأنْ يُعتقل ويُضرب مثلاً ليُقرَّ بما حدث ، إلى أن يصير جسمه جسماً (أطرش) يعنى : لا يشعر بالألم لكثرة الضرب ؛ لذلك مثل هؤلاء يُضرب جَلْدة ، أو عدة جلدات ، ثم لا يشعر بعدها بشىء ، ويصدق فيه قول الشاعر :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لجُرْحٍ ميِّتٍ إيلامُ [(١)]

أو قَوْل الآخر :

وكنتُ إذَا أَصَابَتْنى سِهَامٌ ... تَكسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصَالِ [(٢)]

إذن : عذاب الدنيا قد يُخفَّف ، ولو بهذه العادة الرديئة ، وهى فقدان الإحساس بالعذاب حين يفقد الجلد اتصاله بالمخ ، أما عذاب الآخرة فلا يُخفَّف عنهم مهما طال بهم ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ (٥٦)﴾ [النساء]

---

(١) هذا البيت للمتنبى أيضاً ، وهو من قصيدة مطلعها :

لا افتخَارٌ إلاَّ لمَنْ لاَ يُضامُ ... مُدْرِك أَوْ مُحارِبٍ لاَ يَنَامُ

وهى فى ديوانه من بَحر الخفيف ، عدد أبياتها ٤٣ بيتاً .

(٢) هذا البيت قاله عدة شعراء مع اختلاف فى صدره واتحاد العجز :

- إبراهيم الطباطبائى : فصار إذا أصابته سهام
- أحمد الغروى : فصرت إذا أصابتنى سهام
- المتنبى : فصرت إذا أصابتنى سهام
- جرمانوس فرحات : فصرت إذا أصابتنى سهام
- حفنى ناصف : ولاقت مثلها الصعدات حتى
- عبد الرحمن الموصلى : وصار إذا أصابته سهام

فهو للمتنبى أيضاً من قصيدة له فى ديوانه من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤٥ بيتاً ، فهو السابق إلى هذا المعنى بهذا اللفظ .

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

معنى ﴿يَصْطَرِخُونَ (٣٧)﴾ [فاطر] أى : يصرخون ويصيحون مستغيثين طالبين للنجدة . والصراخ : استنجاد بمَنْ يخلصك من شدة أو ضائقة أو عذاب ، ومثل هذا الصوت نسمعه مثلاً حين يشبُّ حريق لا قدَّر الله ، فيصرخ الناس طلباً للمساعدة .

وهؤلاء يصطرخون ﴿فيها (٣٧)﴾ [فاطر] أى : فى النار يقولون فى صراخهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧)﴾ [فاطر] أولاً : عجيب منهم أن يقولوا الآن (ربنا) هذه الكلمة التى أنكروها فى الدنيا ، وكفروا بها ، الآن ينطقونها ، لكن بعد فوات أوانها . ثم أقرُّوا على أنفسهم بأن عملهم فى الدنيا لم يكُنْ صالحاً ، وهذه حيثية تُحسب عليهم لا لهم ، وتزيد من عذابهم لا تُخففه عنهم .

ثم لو أجابهم الله - وهيهاتَ لهم ذلك - هل سيعملون صالحاً كما يقولون ؟ لقد علم الله كذبهم ، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

إذن : هذا مجرد كلام حين الضائقة ، ولو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه ؛ لذلك يرد الله عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧)﴾ [فاطر] يعنى : مددنا لكم العمر فى الدنيا بما يكفى للتذكُّر وللاعتبار لمَنْ أراد أنْ يتذكر أو يعتبر .

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (٣٧)﴾ [فاطر] الرسول الذى ينذركم ويحذركم من

عاقبة أفعالكم ، ومع ذلك لم تعودوا إلى الجادة ، ولم تراجعوا أنفسكم إلى أن فات الأوان .

﴿ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : ذوقوا العذاب ، ومعنى ﴿ مِن نَّصِيرٍ (٣٧) ﴾ [فاطر] أى : مُعين . والنصير هو الذى يدفع عنك بقوة ، ويدخل معك المعركة ، وفى موضع آخر يقول سبحانه ﴿ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (٣١) ﴾ [الشورى] والولى : هو القريب الذى يدفع عنك برجاء واستمالة وتحنين ، وهؤلاء لا لهم ولىٌّ ، ولا لهم نصير فى هذا الموقف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) ﴾

جاءت هذه الآية كتعليل لما قبلها ، فالحق سبحانه يعلم كل ما غاب فى السموات وفى الأرض ، ويعلم خفايا الصدور ومكنوناتها ونواياها وما يعلق بها ، وقد علم سبحانه نوايا أهل النار ، وعلم أنهم لو رجعوا إلى الدنيا لَعادوا لما كانوا عليه ، فهذه تجربة لن تتكرر ؛ لذلك أنهى الله معهم هذا الموقف ، وحكم بعدم رجوعهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَـٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَـٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا (٣٩) ﴾

معنى : ﴿ خَلائِفَ (٣٩) ﴾ [فاطر] خلفاء : يخلف بعضكم بعضاً . وفى آية أخرى ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً .. (٣٠) ﴾ [البقرة] أى : خليفة لله فى أرضه ؛ لذلك وهبنا الله صفات من صفاته سبحانه ، لنباشر بها مهمتنا فى الأرض ، فإنْ وجدتَ فينا قدرة على العمل فهى من قدرة الله، وإنْ وجدت فى تصرفاتنا حكمة فهى فيض من حكمة الله ، وإنْ وجدت فينا عزة فهى من عزة الله .. الخ .

هذا هو معنى الخلافة ؛ لأن الإنسان حين يتأمل ذاته يجد أن كلَّ ما فيه موهوب له من خالقه سبحانه ، ليس ذاتياً فيه .

وسبق أنْ قلنا مثلاً : إنك لمجرد إرادتك أنْ تقوم من مكانك تجد نفسك قد قُمْت دون أنْ تعرف ماذا حدث فى أعضائك وعضلاتك ، وكيف صدرت الأوامر لهذه العضلات أنْ تتحرك ، هذه فى الحقيقة صفة من صفات الخالق سبحانه وهبك شيئاً منها ، بدليل أنه سبحانه إنْ سلبك هذه القوة لا تستطيع القيام ، وقد سلبها بالفعل من غيرك ليبين لك أن قوتك ليست ذاتية فيك ، فلا تغترَّ بها .

تلحظ مثلاً بعد تطور الصناعة أن العلماء استخدموا حركات البشر فى صناعة (الأوناش والبلدوزرات) فترى الحركة الواحدة تحتاج إلى عدة حركات من الآلة ، وتحتاج إلى أنْ يضغط السائق على زرٍّ معين لهذه الحركة ، أما أنت فلا تحتاج فى حركة أعضائك إلى شىء من هذا .

فبمجرد أن تريد الفعل تفعله وتتفاعل معك أعضاؤك وعضلاتك ، وتؤدى لك ما تريد منها دون أن تشعر أنت بشىء ، فإذا كنتَ أنت وأنت مخلوق لله تعالى حين تريد شيئاً تفعله دون أنْ تأمر عضواً من أعضائك ، ولا عضلة من عضلات جسمك ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

أتنكر أنه سبحانه يقول للشىء كُنْ فيكون ؟ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

أنت حينما تريد حركة لا تأمر شيئاً من أعضائك ، لأنك لا تعرف أيَّها تأمر ، فالأعضاء والعضلات والأعصاب أشياء متداخلة ، ولا تدرى أنت ما يدور بداخلك لتؤدى هذه الحركة ؛ لذلك سوَّاك الخالق سبحانه على صورة تنفعل لك أعضاؤك بمجرد إرادتك ، أما الخالق سبحانه فيأمر الأشياء ويقول لها : كُنْ . لأنه سبحانه يعلم الآلة التى تتحرك .

وأيضاً الخالق سبحانه لم يترك لك أمراً على جوارحك ، إنما ذلَّلها لك وطوَّعها لإرادتك ؛ لأنك لا تضمن إنْ أمرتها أنْ تطيعك وتستجيب لك ، أمّا الخالق سبحانه فإن أمر الأشياء أطاعته ، بدليل أن الإنسان حين يُسْلَب القدرة على الحركة ، أو حين يصيبه هذا المرض والعياذ بالله يريد أنْ يحرك أصبعاً من أصابعه فلا يستطيع .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يستدعى الخليفة إلى الوجود خلق له قبل أن يخلقه ، وضمن له قُوتَه ومُقومات حياته وضرورياتها إلى قيام الساعة ، ثم ترك للعقول أن تعمل ، وأن تستنبط من الضروريات ما يُترف الحياة ويثريها .

إذن : أنت أيها الخليفة لله فى الأرض ليس لك إلا أن تستقبل أمر الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) بالطاعة والانقياد ، فإنْ كفرتَ بعد ذلك ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (٣٩) ﴾ [فاطر] كفرت يعنى لم تُطع افعل ولا تفعل ، والكفر يعنى الستر ، وكفر بالله يعنى : ستره ، كأن الله كان ظاهراً ، فستره الكافر بكفره ؛ لذلك قلنا : إن الكفر أول دليل على الإيمان ، فلولا وجود الله ما كان الكفر .

وكما أن هناك كفراً بالله الذى استخلفك ، هناك كفر بما اسْتُخلفْتَ فيه ، كُفْر بالنعمة بأنْ تنسى واهبها لك والمنعِم عليك بها ، ومن كفر

النعمة أن تكسل عن استنباطها واستخراجها من باطن الأرض ، وتتركها مطمورة لا ينتفع الناس بها ، ومن كُفْر النعمة أيضاً ألاَّ تؤدى حقَّ الله فيها ، وأنْ تسترها عن مُستحقها المحتاج إليها .

وما يعانيه العالم الآن من أزمات فى القوت ومجاعات ما هو إلا نتيجة طبيعية لكفر النعمة ، إما بالتكاسل والقعود عن استنباطها ، وإما نستنبطها لكن تشح بها نفوسنا وتبخل ، بدليل أننا عشْنا فترة طويلة فى الوادى الضيق ، ولم نحاول استنباط خيرات الصحراء ، فلما تنبهنا إلى ضرورة غزو الصحراء وتعميرها أصابنا هوس الاستنباط ، فزرعنا الترف ولم نزرع الضروريات فتجد السوق عندنا مليئاً بالبرتقال والموز والعنب والكنتالوب والفراولة .. الخ ونحن (نشحت) رغيف العيش ، ونستجدى غيرنا ضروريات حياتنا .

إذن : الجزاء هنا من جنس العمل ﴿ **فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ** (٣٩) ﴾ [فاطر] أى : يُجزى به ، فالذى كفر بالمنعم له جزاؤه ، وجزاؤه العذاب فى الآخرة ، والذى كفر بالنعمة له جزاؤه ، وجزاؤه أنْ يموت جوعاً وأنْ يُذلَّ لغيره ، وإنْ ذُلَّ لغيره فلن ينفذ أمراً ولا نهياً ، ولن يهتم بدين ولا بمنهج .

ورحم الله أجدادنا الذين قالوا : (اللى لقمته من فاسه كلمته من راسه) .

ثم يقول سبحانه مُبيِّناً عاقبة الكفر ﴿ **وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا** (٣٩) ﴾ [فاطر] نعم ، الكفر يُزيد صاحبه مَقْتاً وكراهية من الله عز وجل ؛ لأنك كفرت بمَنْ ؟ كفرتَ بالله ربك وخالقك ورازقك وواهبك النِّعَم ، وكل كفر بشىء من هذا يستوجب لك كراهية وبُغْضاً من الله ، وهذا البغض يزيد بالاستمرار فى الكفر والتصميم عليه ، ثم بعد هذا كله يزيد الكفر صاحبه

﴿ خَسَارًا ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] وأىُّ خسارة بعد الكفر بالله ، الخسارة هنا كبيرة ؛ لأنها هلاك وخسران لخيرَىْ الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾

الخطاب فى (قل) لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] يعنى أخبرونى عنهم ، وليست مجرد استفهام عن الرؤية كما لو قُلْتُ لك : أرأيتَ فلاناً أمس ؟ تقول : نعم أو لا ، أما هنا فالمراد الإخبار عن الحال وطلب منهم هم أنْ يخبروا عن حال شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، وجعلهم هم أنفسهم حكَماً فى هذه المسألة .

﴿ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : أخبرونى إنْ كانوا هم انفردوا بالخَلْق ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمَٰوَاتِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : شاركونى الخَلْق وكانت أيديهم بيدى يخلقون معى ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [فاطر] كتاباً يبيح لهم الشرك ، ويكون حُجَّة لهم فى شركهم .

والحق سبحانه وتعالى يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

فالحق سبحانه لا ينفى مشاركتهم له سبحانه فى الخلق فحسب ، إنما ينفى مجرد مشاهدتهم لهذه المسألة ، فليس لهم علْم بالخَلْق ولا صلةَ لهم به ، ولا يستطيعون أنْ يخبروا كيف خُلقت السمواتُ والأرض ، ولا كيف خُلقوا هم أنفسهم .

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ (٤٠) ﴾ [فاطر] وهى إضراب عن الكلام السابق ، وإثبات للحكم بعدها ﴿ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) ﴾ [فاطر] وإنْ هنا بمعنى ما النافية ، يعنى : ما يَعِد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ، والغرور هو الخداع الذى يُلبس الباطلَ ثوبَ الحق ؛ ليجذب الناس إليه ، ويزخرفه لهم ليغرَّهم به .

ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار] يعنى : ما أغراك بمعصيته ؟ وما شجَّعك على عصيان أوامره ؟ وكأن الحق سبحانه يُعلِّمنا الرد بقوله تعالى (الكريم) فالذى غرَّنا بالله كرمه وفضله .

فالمعنى : بل كل هذا باطل ، فشركاؤهم ما خلقوا شيئاً ، وما شاركوا فى خَلْق شىء ، ولا آتيناهم كتاباً يكون حُجَّة لهم ، كل هذا خداع منهم وزخرفة ، والحقيقة أنهم يَغُرُّ بعضُهم بعضاً ، ويخدع بعضهم بعضاً بهذه الأباطيل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا (٤١) ﴾

نَعَم ، الله وحده هو الذى يُمسك السموات أنْ تقع على الأرض ويمسك السموات والأرض أن تزولا يعنى : تتحرك من أماكنها ، وتسقط وتتهدم ، ولو تركها الخالق سبحانه ما استطاع أحد أنْ يُمسكهما ﴿ مِنْ بَعْدِهِ (٤١) ﴾ [فاطر] أى : سواه ، وهذه المسألة لله وحده ، ليس له فيها شريك ولا معارض ، وهى من صميم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) ﴾ [الإخلاص]

والحق سبحانه يمسك السموات والأرض أنْ تزولا ، لأنه سبحانه خلق السموات بغير عَمَد ، وبغير دعائم تحملها ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا (١٠) ﴾ [لقمان]

وأرنى غير الله يستطيع أنْ يرفع هذه القبة الزرقاء هكذا بغير عَمَد ، إن قصارى ما وصل إليه التقدم البشرى بناء كوبرى مثلاً يمتد لعدة مترات بدون دعائم فى وسطه ، مع أنهم يستعيضون عن ذلك بدعائم أقوى فى أطرافه ، بحيث تحمل الوسط وتشده ويسمونها الكبارى المعلَّقة ، فأين هذا من رفع السماء ؟ والسماء كما قلنا : هى كلُّ ما علاك ، فالله يمسك السماء بما فيها من نجوم وأقمار وكواكب ومجرات ، ويمسك الأرض أنْ تميد بأهلها ، وأن تضطرب بهم .

ولما تكلم العلماء فى هذه المسألة قالوا : إنها الجاذبية التى تمسك الأشياء ، لكن إنْ كانت الجاذبية للأرض ، فلماذا لم تجذب النجوم مثلاً ، وهى بين السماء والأرض ؟

إذن : المسألة قدرة إلهية ، ونظام للكون مُحكم ، يجعل لكل مخلوق فى السموات والأرض ما يحفظ توازنه ويمسكه أنْ يقع .

و(إنْ) فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا (٤١) ﴾ [فاطر] يعنى ما يمسكهما ، فهى بمعنى أداة النفى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِى وَلَدْنَهُمْ (٢) ﴾ [المجادلة]

وتُختم الآية بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر] ولك أنْ تسأل : ما علاقة هاتين الصفتين لله تعالى الحليم والغفور بمسألة إمساك السموات والأرض ، وهى مسألة كونية ؟

قالوا : لأن هذه المسألة يكثر حولها الجدال ، وكثيراً ما يتعدى الإنسانُ حدوده فيها ، فيسأل عمّا لا ينبغى له الخوض فيه ، وعن كيفية إمساك السموات والأرض ، وهو يمشى فى أنحاء الأرض ، ويركب الطائرة في جَوِّ السماء ، فلا يرى شيئاً ، ولا يرى أعمدة .

وهذه مسألة لا دخلَ لنا فيها ، ويكفى أن الخالق عز وجل أخبرنا عنها بقوله : ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] أى : لا يوجد لها عُمد بالفعل ، أو لها عمد ، لكن لا ترونها ويصح المعنيان ، وعلينا أنْ نقف عند هذا الحدِّ .

فالحق سبحانه حليم لا يعاقب المتجرئين عليه ، الخائضين فى حقه ، بل إن المنكرين لوجوده سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ولولا حِلْمه تعالى كان (دربكها) على رؤوسهم .

وقد ورد فى الحديث القدسى : « قالت الأرض : يا رب ائذن لى أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب ائذن لى أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لى أنْ أسقط على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لى أنْ أُغرق ابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعونى وخَلْقى ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم ..»[1]

(١) أورده الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصى إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدى وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إلىَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

إذن : لولا حلْم الله علينا ومغفرته لذنوبنا ما أمسك السموات والأرض ، ولتهدَّم هذا الكون على مَنْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : اجتهدوا فى القسَم والحلف بأغلظ الأيمان ﴿ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ (٤٢) ﴾ [فاطر] رسول ﴿ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ (٤٢) ﴾ [فاطر] أشد هداية ﴿ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : أهدى من الأمم السابقة يعنى : سيكونون فى المقدمة .

والحق سبحانه يُوضِّح لنا هذا المعنى فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات]

وهذا كله قولهم بأفواههم ، ويعلم الله أنهم كاذبون ، لكنه سبحانه يُرخى لهم العنان ، ولا يكشف هذا الكذب فيقول لهم : دَعْكم من الأوَّلين ، وها هو الذكر الذى طلبتم وقلتم إنكم ستكونون به أهدى الناس ، والمراد هنا رسالة محمد ﷺ .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) ﴾ [فاطر] يعنى : إعراضاً وتباعداً عن الحق وعن الهداية . لماذا ؟ لأن الذكْر الذى جاءهم جاء على يد محمد ، ولو جاء على يد رجل عظيم كما يقولون لقَبلوه : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فيرد

الله عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ (٣٢) ﴾ [الزخرف]

عجيب منهم أنْ يريدوا قسمة رحمة الله على هواهم واختيار رسول الله كما يحبون ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

كيف والله قد قسم بينهم أبسط أمور حياتهم فى الدنيا ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً .

لكن هذا القول منهم دليل على أن القرآن عندهم لا غبارَ عليه ، وأنهم لا يُكذِّبون به مع أنهم قالوا عنه إنه سحر ، وأنه كهانة ، وأنه شعر ، ومع هذا يعترفون بأن القرآن لا غُبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على محمد بالذات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه علَّة نفورهم ، فيقول :

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾

نعم ، استكبروا على الحق ، فلم يقبلوه ، لماذا ؟ لأن هذا الحق جاء ليُنزلهم من عالى السيادة إلى العبودية المقترحة المستطرقة بين كل الخَلْق ، وهم ألفوا السيادة وتشقّ عليهم المساواة ، وأن يكونوا هم وعبيدهم كأسنان المشط .

وكأن الحق سبحانه يرد عليهم : يا مَنْ تستكبرون عن قبول الحق بما لكم من السيادة ، أمَا كان يليق بكم أنْ (تخزوا) على

عرضكم ، وتسألوا أنفسكم : منْ أين لكم هذه السيادة ؟

بالله ، لو أن الله تعالى مكَّن أبرهة من هدم الكعبة فى حادثة الفيل ، وانصرف الناس إلى كعبة أخرى فى صنعاء ، أكانت لكم سيادة ؟ أكانت لكم مهابة أو ذكْر بين الناس ؟ إذن : كان عليكم أنْ تُعملوا عقولكم ، وأن تتأملوا هذه المهابة من أين ، وهذه الأرزاق التى تُساَق إليكم من أين ؟ لقد كنتم تُحرِّمون على الناس أنْ يطوفوا بالبيت إلا وهم عرايا ليشتروا منكم الثياب .

واقرأوا قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

لماذا فعل الله هذا بأصحاب الفيل ؟ يجيب الحق سبحانه فى السورة بعدها : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

يعنى : ما فعلتُ هذا بأصحاب الفيل إلا من أجل قريش ، واستبقاء سيادتها ، وتوفير القوت والأمن لها ، لكنهم مع هذا كله استكبروا على منهجى وصادموا رسولى ، وعاندوه وكادوا له .

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ (٤٣) ﴾ [فاطر] أى : برسول الله ، وبمَنْ آمن معه ليردُّوهم عن دينهم ، ولو علموا حيثية استكبارهم لهداهم هذا الاستكبار إلى الإيمان بمَنْ جعلهم كبراء .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] فقد مكروا برسول الله وكادوا له ، وتآمروا عليه ، وآذوا المؤمنين به وعذَّبوهم ، لكن جعل الله كيدهم فى نحورهم ، كما

قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ ﴾ [الأنفال] أى : يسجنوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال]

لقد احتالوا للقضاء على دعوة الإسلام بكل ألوان الاحتيال ، فلم يُفلحوا ، حتى دبروا لقتله ﷺ ، فخيَّبَ الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بينهم وهم نيام ، وهو يحثو التراب على رؤوسهم ، ثم لما يئسوا من القضاء عليه بالحيلة لجئوا إلى الجن ، واستعانوا بهم ليسحروا رسول الله ، لكن نجَّاه الله منهم ، ثم حاولوا دسَّ السُّم فى طعامه ﷺ .

وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا جهودكم ، فلن تُطفئوا نور الله، ولن تصدوا محمداً عن دعوته ، لا بالاستهزاء والسخرية ، ولا بالإيذاء والمكر والتبييت ، ولا حتى بالسحر .

ومعنى : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ (٤٣)﴾ [فاطر] يعنى : ينزل بهم ويحيط بهم ، وينقلب عليهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ (٤٣)﴾ [فاطر] يعنى : فما ينظرون إلا سنت الأولين فى الرسل السابقين ، والسنة هى الطريقة والعادة المتبعة والموجودة ، فهل وجدوا فى الرسل السابقين وفى الأمم السابقة أن الله أرسل رسولاً ثم خذله ، أو تخلَّى عنه ، ولم يهلك أعداءه والمكذبين به ؟ إن نصرة الرسل سُنَّة متبعة ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣)﴾ [فاطر] لماذا لا تتبدَّل سنة الله ولا تتحوَّل ؟ لأن الله تعالى أولاً ليس عنده بِدَاء ، ومعنى البِدَاء أنْ تفعل شيئاً ثم يَعِنّ لك أنْ تفعل

أحسن منه ، وأيضاً لأنه سبحانه إله واحد ، لا ثانى له ، ولا شريك له ، فلا أحدَ يستدرك عليه ، أو يُغير فعله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾

الاستفهام فى ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا .. (٤٤) ﴾ [فاطر] استفهام يفيد التعجُّب ، يعنى : كيف يكون منهم هذا ﴿ أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَينظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٤٤) ﴾ [فاطر] أى من المكذِّبين الذين أخذهم الله ﴿ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً (٤٤) ﴾ [فاطر]

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

نعم ، كانوا فى حركة حياتهم وفى أسفارهم يمرُّون على قُرى عَاد وثمود ، وقوم لوط وقوم صالح .. الخ وكانوا يروْنَ آثارهم وما حَاق بهم من الدمار والخراب بعد أنْ كذَّبوا رسلهم ، وكانوا أصحاب حضارات وعمارة وقصور لا مثيل لها .

كما قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

والعجيب أن أصحاب هذه الحضارات التى جابت سمعتُها الآفاق لم يستطيعوا أن يضعوا لحضاراتهم ما يصونها من الاندثار .

ولنا ملحظ فى قوله سبحانه : ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ (٤٤)﴾ [فاطر]

فمنذ عهد قريب كنا نعتقد أن السير فى الأرض يعنى على الأرض ؛ لأننا نسير عليها لا فيها ، إلى أن اكتشفنا أن الأرض فيها الأقوات ، وسيد الأقوات الهواء ، بدليل أنك تصبر على الماء لعدة أيام ، وتصبر أكثر منها على الطعام ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق أو زفير ، لو حُبس عنك لفارقتَ الحياة .

وعرفنا أن هواء الأرض من الأرض ؛ لذلك يدور معها ويرتبط بها إذن : نحن بهذا المعنى لا نسير على الأرض ، إنما نسير فيها ، حتى الذى يحلق بالطائرة فى طبقات الجو العليا أيضاً يسير فى الأرض ؛ لأن الهواء من الأرض ، وهو أصل قوامها نفساً وقوتاً .

وليتأكد لك أن الهواء سيد الأقوات ، إجر هذه التجربة ، خذ إصيصاً أو برميلاً مثلاً وضَعْ فيه تربة زراعية بوزن معين ، وازرع فيه شجرة مثمرة كالموز مثلاً ، وبعد فترة زِنْ الثمار التى أخذتها من الشجرة وزِن ما نقص من التربة ، وسوف تجد أن التربة نقصتْ بمقدار خمسة بالمائة ، أما نسبة الخمسة والتسعين فمن الهواء .

فكأن الهواء هو المغذِّى الأساسى للنبات ؛ لذلك نقول : إنه الأصل فى القوت ، على خلاف ما كنا نعتقده من أن التربة هى الأصل فى القوت ، لذلك يشير القرآن إلى هذه المسألة ، فيقول

سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا[1] التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم (٦٦) ﴾ [المائدة] فذكر الفوقية قبل التحتية .

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا.. (٤٤) ﴾ [فاطر] يريد من الكفار أنْ ينظروا إلى مواقع الحياة ، لا إلى كلامنا ، ولا إلى كلامهم ، بل واقع الحياة المشَاهَد ، فقال ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا (٤٤) ﴾ [فاطر] لأنهم ساروا بالفعل ؛ لذلك لا يأمرهم هنا بالسير ، بل يقرر واقعاً حدث بالفعل ؛ لأنهم كانوا أمة لها تجارة فى الصيف إلى الشمال ، وفى الشتاء إلى الجنوب .

وفى هذه الأسفار رأوا الكثير من آثار مَنْ سبقهم ، فهل رأوا فى السابقين رسولاً هُزِم من المكذبين به ؟ لقد هزم الله المكذبين والكافرين ، وكتب النصر للمؤمنين الصادقين ، وهؤلاء الذين أخذهم الله كانوا أشدَّ منهم قوةً ، لكنها قوة البشر مهما بلغتْ من التقدم ماذا تفعل أمام قوة الله ، فلا تنظر إلى قوة الرسول ، لكن انظر إلى قوة مَنْ أرسله ، ومَنْ تكفَّل بحفظه ونصرته .

إذن : هذه معركة ليست بين خَلْق وخَلْق ، إنما بين خَلْق معاندين للخالق سبحانه ، فهل تُعجِزون الله ؟ لذلك ينفى الحق سبحانه أنْ

---

(١) بعض الذين لم يفهموا القرآن أو الذين لا يريدون أن يفهموا يطعنون فى القرآن بأنه يتناقض مع نفسه ، فمن جهة يرمى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالكفر ، ومن جهة أخرى يطالبهم أن يقيموا التوراة والإنجيل ويطالبهم بالرجوع إليهما كما فى هذه الآية . إنهم يتجاهلون أن الذى أنزل القرآن هو الذى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، والإسلام يعترف بالأديان قبله ، فهناك تواصل ، فلماذا يقفون عند حد التوراة والإنجيل ويتجاهلون أن الله أنزل كتاباً يصدق ما بين أيديهم من كتبهم وهو مهيمن عليها حاكم على ما فيها ، فلو أقاموا التوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى نزل على عيسى لا ما اخترعوه هم وأضافوه لأدى بهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم من القرآن . فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

يكونوا معجزين ، وينفى أن يكونوا معاجزين ، وفَرْق بين الاثنين : معجز إنْ أعجزه ولو مرة يعنى : أتى بما يعجزه ، إنما مُعاجز فيها مشاركة ومفاعلة ، كأن الإعجاز كان بينهما سجَال ، وفيه أَخْذ ورَدٌّ .

فكأن الحق سبحانه يُملى لهم ويمهلهم ، فيجعل لهم الغَلَبة فى بعض الجَوْلات ليستنفد كل أنواع الحيل ، ويستنفد كل قُواهم ، إذن : مهما كانت قوتكم ، ومهما استعنتُم وتقوَّيتم بحضارات أخرى فلن تُعجزوا الله ؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شيء ، وليس له سبحانه شريك أو مقابل يساعدكم ، فهو إله واحد يساعد المؤمنين به وينصرهم ، وأنتم لا ناصرَ لكم ، والحق سبحانه أهلك المكذِّبين قبلكم ، وكانوا أشد منكم قوةً ، والذى يقدر على الأشدِّ أقدر من باب أَوْلَىَ على الأضعف .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد أنْ يؤكد أمراً واقعياً من الممكن أنْ يأتى به فى صورة الخبر ، فيقول : لقد ساروا فى الأرض ، ورأوا كذا وكذا ، لكن عدل عن الخبر هنا إلى الاستفهام ، يعنى : اسألوهم أساروا أم لم يسيروا ؟

والحق سبحانه لا يسأل هذا السؤال إلا وهو واثق أنهم سيقولون سِرْنا ، وهذا يؤكد الكلام ؛ لأنه إقرار من المخاطب نفسه ، كما أن الاستفهام بالنفى أقوى فى تقرُّر المخاطب من الاستفهام بالإثبات .

ومسألة السير فى الأرض أخذتْ حظاً واسعاً من القرآن الكريم ؛ لأن الله تعالى يريد من الناس أنْ ينظروا إلى الآيات الكونية ، وأنْ يتأملوا فى الكون ليقفوا على أسراره ، وعلى دلائل القدرة فيه ؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه مرّة بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩) ﴾[النمل] ومرة : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا (١١) ﴾ [الأنعام]

فما الفرق بين التعبيرين ؟

قالوا : السير فى الأرض يكون إما للنظر والاعتبار وإما للاستثمار ، فقوله تعالى : ﴿ فَانظُرُوا (٦٩) ﴾ [النمل] للسير المراد منه الاعتبار والتأمل فى آيات الله ، وفى هندسة الكون العجيبة التى تدلُّنا على قدرة الخالق سبحانه .

أما قوله ﴿ ثُمَّ انظُرُوا (١١) ﴾ [الأنعام] فهى للسير الذى يُرَاد منه العمل والاستثمار وطلب الرزق ، فحتى إنْ سِرْتَ فى أنحاء الأرض طلباً للرزق وللاستثمار لا تنْسَ ولا تغفل عن الاعتبار وعن التأمل ، ولا تحرم نفسك من النظر فى الآيات وفى مُلْك الله الواسع ، خاصة إذا اختلفتْ البيئات .

فالبيئة الصحراوية البدوية كبادية الحجاز مثلاً تسير فيها لا تكاد ترى فيها أثراً للون الأخضر ، وفى إندونيسيا مثلاً ذهبنا إلى أماكن تكسوها الخضرة ، بحيث لا ترى بقعة من الأرض خالية من النبات ، وفى كل من هاتين البيئتين خيراتها وما يُميِّزها عن الأخرى ؛ لذلك قالوا فى المثل : (اللى يعيش ياما يشوف ، واللى يمشى يشوف أكثر) .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾ [فاطر]

سبق أنْ تكلَّمنا فى معنى يُعجزه ، الآية هنا لا تنفى أن شيئاً فى السموات أو فى الأرض يُعجِز الحق سبحانه ، إنما تنفى مجرد أنْ يكون هذا أو يُتصوَّر ، فهذا أمر لا يُتصور ولا يكون أصلاً .

وقوله : ﴿ مِن شَيْءٍ (٤٤) ﴾ [فاطر] من هنا تنصُّ على العموم يعنى :